(مستخرج)

مصر المعاصرة

مجلة علمية محكمة ربع سنوية

تصدرها

الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والإحصاء والتشريع

الحق الدستوري فى مجانية التعليم فى مصر قديماً و حديثاً

د. عبد الرحمن محمد سيد

يوليو ٢٠٢١
العدد ٥٤٣
السنة المائة واثنى عشرة
القاهرة

L'EGYPTE CONTEMPORAINE

Revue Scientifique arbitrée .. Quart annuel

de la

société Egyptienne d'Economie Politique de Statistique

et de Législation

The Constitutional Right to Free Education in Egypt In Present & Past

Dr. AbdelRahman Mohamed Sayed

July 2021
No. 543
CXII itéme Année
Le Caire

الحق الدستوري فى مجانية التعليم فى مصر قديماً و حديثاً

د. عبد الرحمن محمد سيد

مقدمة:

نصت الفقرة الثانية من المادة (١٩) من الدستور المصري على أن "التعليم إلزامي حتى نهاية المرحلة الثانوية أو ما يعادلها، وتكفل الدولة مجانيته بمراحله المختلفة فى مؤسسات الدولة التعليمية، وفقاً للقانون".

كما نصت الفقرة الأولى من المادة (٢١) على أن "تكفل الدولة استقلال الجامعات والمجامع العلمية واللغوية، وتوفير التعليم الجامعي وفقاً لمعايير الجودة العالمية، وتعمل على تطوير التعليم الجامعي وتكفل مجانيته فى جامعات الدولة ومعاهدها، وفقا للقانون".

فى المقابل فإن وزير التربية و التعليم الحالي خرج بتصريحات تطرح الكثير من التساؤلات عن مستقبل مجانية التعليم فى مصر، من ذلك قوله "علينا مراجعة كلمة المجانية بما يتفق مع موارد الدولة، كما أن الدولة تؤكد على تلك المجانية؛ فى الوقت الذى تنفق فيه الأسر المصرية قرابة ال ٣٠ مليار جنيه على الدروس الخصوصية، لكن "هذه المجانية ليست موجودة على أرض الواقع"؛ مشيراً إلى فكرة التعليم المجانى عإلى الجودة لسنة دراسية معينة وباقى السنوات بشكل آخر، قائلا: "مفيش حاجة ببلاش والدولة علىها التزامات كبيرة ومش هنقدر نرفع من ميزانية التعليم"[(١)].

و إذا كانت تصريحات الوزير يمكن تفسيرها باعتبارها مساساً بأحد الواجبات الأساسية الملقاة على عاتق الدولة بموجب نص دستوري ملزم، و إذ سعى الكثيرون للدفاع عن مجانية التعليم بإجراء العديد من الدراسات المقارنة لإظهار أهميتها فى نهضة دول العالم الحديثة[(٢)]، فإننا فى المقابل من خلال هذا البحث حاولنا إظهار هذه الأهمية من خلال دراسة تاريخية مقارنة، تعرض تفصيلاً لدور الدولة فى العملية

(١) إيمان علي، وسمر سلامة، مجانية التعليم بحاجة لدراسة « أول مواجهة بين طارق شوقي «) والبرلمان.. تحفظات على تصريحات الوزير الجديد عن « بوكليت الثانوية »... نواب يؤكدون: الحق فى الدراسة دستوري ولا مساس به.. وآخرون: الراسبون يتحملون نفقاتهم، جريدة اليوم السابع، الأحد، ١٩ فبراير ٢٠١٧.

(٢) د. أسماء البدوي، التعليم العالي فى مصر: هل تؤدي المجانية إلى تكافؤ الفرص؟ مجلس السكان الدولي، ٢٠١٢.

التعليمية فى مصر القديمة، و البحث فيما إذا كان هناك تطبيقات لسياسة مجانية التعليم نشأت فى مصر القديمة و تأثير هذه السياسات، ثم تتبع موجز لمجانية التعليم فى مختلف العصور وصولاً إلى العصر الحديث، لنختتم البحث بعرض التطبيقات الحديثة لمجانية التعليم.

و إذا كانت دراستنا فى الأساس دراسة دستورية لأحد أهم المبادئ الجوهرية التي ترسخت فى الدساتير المصرية المتعاقبة، فإننا نسعى من خلال هذا البحث للإجابة على العديد من التساؤلات المرتبطة بموضوع بحثنا، منها على سبيل المثال: البحث عن نطاق تطبيق مجانية التعليم، و ما إذا كان الأصل التاريخي فى تقديم الخدمة التعليمية فى مصر هو كونها خدمة مجانية أم بمقابل مادي. و أيضاً البحث عما قد يكون من تأثير لمجانية التعليم على النهضة التي عاصرته أو تلته. كما سنبحث عن نطاق تطبيق تلك الخدمة، و ما إذا كانت اقتصرت على المواطنين المصريين وحدهم أو امتدت لغيرهم من الأجانب، و تأثير ذلك على قوة مصر الناعمة و دورها الإقليمي و العالمي نتيجة نشر فكرها و ثقافتها حول العالم.

و إذا كان تاريخ مصر الحديث – وفقاً للغالبية العظمى من المفكرين – يبدأ بعد الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ م – ١٨٠١ م و التي مثلت الصدمة الحضارية الأقوى لكثير من النخب العلمية المصرية، و يعتبر حكم الأسرة العلوية بقيادة مؤسسها محمد علي ١٨٠٥ هو تاريخ تأسيس الدولة المصرية الحديثة.

فقد كان طبيعياً أن نعرض لإرهاصات هذه المرحلة الفاصلة فى تاريخ مصر والمنطقة، و التي مثلت التطور الأبرز فى التعليم المصري، و ما نتج عن هذه التطورات من نتائج غيرت بصورة جذرية واقع المجتمع ليس فقط فى مصر، و لكن فى كل المنطقة العربية و الإسلامية كنتيجة لتلك التطورات.

وهكذا، حاولت الدراسة أن ترسم صورة واضحة ومتكاملة لتطور التعليم فى مصر حتى بدايات العصر الحديث.

و فى ضوء ذلك، فإننا سنقسم بحثنا إلى مبحثين، نتناول فى الأول منهما لبحث مجانية التعليم فى مصر القديمة، بينما نخصص المبحث الثاني لمجانية التعليم فى العصر الحديث.

المبحث الأول

مجانية التعليم فى مصر القديمة

لا عجب أن تحوز الحضارة الفرعونية بالأهمية القصوى من دراسة تاريخ الحضارة المصرية، بل و العالمية، نظراً لما حققته تلك الحضارة من إنجازات، لا تقارن بمثيلاتها فى العصور القديمة، بل بمقارنتها بما حققته الحضارة الإنسانية جمعاء وصولاً إلى العصر الحديث.

و يضاف إلى ذلك، أننا إذا كنا حالياً فى مستهل الألفية الميلادية الثالثة، فإن تاريخ الحضارة الفرعونية يمتد إلى ما يقارب ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد، أي أن المرحلة الزمنية التي شغلتها الحضارة الفرعونية تمتد إلى حوالي ضعف الفترة الزمنية التي استغرقتها كافة الحضارات المصرية اللاحقة لها.

و قد ركزت الدراسة على المرحلة الفرعونية بصفة خاصة ثم على المرحلة الإسلامية، نظراً لخصوصية الأولى من ناحية، و لتفرد مصر فى الثانية باعتبارها قبلة التعليم الشرعي للعالم الإسلامي و مركز إعداد العلماء على مدى مئات السنين.

لذلك، فإننا سنقسم هذا المبحث إلى مطلبين: نتناول فى الأول منهما مجانية التعليم فى مصر الفرعونية، بينما نخصص المطلب الثاني لمجانية التعليم فى العصر الإسلامي، وصولاً إلى ما قبل العصر الحديث أي مرحلة ما بعد الاحتلال الفرنسي لمصر فى نهاية القرن الثامن عشر.

المطلب الأول

مجانية التعليم فى مصر الفرعونية

كانت دراسة تاريخ مصر القديمة على مدى قرون ترتكز على مؤلفات المؤرخين القدماء التي وصل إلينا بعضٌ منها و ضاع الكثير فى المقابل، و جاء فى مقدمة هذه المؤلفات ما كتبه المؤرخ الأشهر "هيرودوت" (٤٨٤ ق.م. – ٤٢٥ ق.م.) فى كتابه الأشهر "التاريخ".

و قد ظلت هذه الكتابات هي المصدر الأهم و الأساسي لدراسة و معرفة تاريخ المصريين القدماء حتى القرن التاسع عشر، و ذلك إلى أن تم فهم اللغة الهيروغليفية (المصرية القديمة) و ذلك بفك رموز "حجر رشيد"، و من بعد ذلك بدأت الدراسة الحديثة و الدقيقة للحضارة المصرية القديمة، و بدأ تنقيح الكثير مما ترسخ على مدى القرون السابقة.

إلا أن كتابات "هيرودوت" ما يزال لها تأثيرٌ كبيرٌ فى التأريخ لمصر القديمة و توصيفها و تحليلها سياسياً و اجتماعياً. بل، إننا لا نبالغ بالقول إن مقولة واحدة ذكرها "هيرودوت" فى كتابه "التاريخ" كانت و ما تزال هي المفتاح لفك رموز الشخصية المصرية قديماً و حديثاً؛ و ذلك عندما ذكر أن المصريين هم أكثر شعوب العالم التي وجدها تديناً أو تأثراً بالدين، و هذه الجملة و إن كانت لا تعبر بالضرورة عن مدى الالتزام الديني لهذا الشعب، إلا أنها توضح الدور الرئيسي الذي لعبه – و ما يزال يلعبه – الدين فى حياة المصريين، و ارتباط فكرة العلم على مدى العصور المختلفة بالجانب الديني و العقائدي للشعب.

وعلى الرغم من كثرة الآثار والنصوص التي تركها المصريون القدماء، إلا أن هناك صعوبات جمة تواجه دراسة التعليم فى مصر القديمة، وذلك لأسباب كثيرة؛ منها الفيض الكبير فى المراجع التي تناولت الحضارة المصرية القديمة بوجه عام، فى مقابل ندرة المراجع التي تخصصت فى مسألة التعليم.

و يشمل بحثنا مصر الفرعونية منذ توحيد "مينا" لإقليمي مصر الشمالي و الجنوبي قبل ما يزيد عن ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد و تأسيس أقدم دولة موحدة فى التاريخ، و حتى نهاية العصر الفرعوني بدخول الإسكندر مصر ٣٣٢ ق.م.

سنتناول فى هذا المطلب نبذة تاريخية عن مصر القديمة، ثم نعرض بعدها لمنظومة التعليم فى مصر القديمة و الدور الذي لعبته مجانية التعليم فى إنجاح هذه المنظومة.

الفرع الأول

نبذة تاريخية عن الحضارة الفرعونية

على الرغم من التقدم العلمي الكبير الذي وصلت إليه الإنسانية خلال القرنين الأخيرين، إلا أنه ما يزال من الصعوبة بمكان الوصول إلى إجابة شافية و محددة لأصل نشأة المجتمعات أو الحضارات القديمة و أيهما أسبق.

إلا أن مصر لها مكانة خاصة و بصمة واضحة فى مسيرة الإنسانية، بصمة تمتد إلى أكثر من ٣٥,٠٠٠ سنة مضت، حيث وجدت الهياكل العظمية لبعض المصريين فى منطقة نزلة خاطر بمحافظة سوهاج فى صعيد مصر، و هذه الهياكل أكدت أن المصريين القدماء قد استقروا فى هذه المنطقة منذ آلاف السنين(١).

و لم يقتصر الأمر على مجرد التواجد البشري للإنسان فى هذه البقعة من العالم، و إنما توالت الاكتشافات الأثرية لعناصر الحضارة المختلفة و تطورها فى مصر و على ضفاف وادي النيل، و يمكن تتبع آثار هذه الحضارة الأولى لما قبل ٨,٠٠٠ سنة قبل الميلاد(٢).

و العائق الأبرز الذي حال بيننا و بين تتبع مسيرة التطور الإنساني منذ آلاف السنين هو عدم وجود آثار وثقت هذه الحضارات القديمة، و اقتصر جل ما وصل إلينا عن هذه الفترة الساحقة من التاريخ على مجرد بعض الرسومات و المصنوعات المختلفة.

و قد جاء التطور الأبرز فى مسيرة الحضارة الإنسانية باكتشاف الكتابة، أو على الأقل فيما نظنه كذلك، حيث هناك شبه إجماع ما بين علماء الآثار و اللغات على أن الآثار الأولى للكتابة يعود تاريخها إلى ٣,٢٠٠ ق. م. تقريباً.

إلا أن الخلاف الحاد بين العلماء ظهر فى نسبة فضل اكتشاف الكتابة؛ و إذا ما كان هذا الفضل يعود إلى الكتابة المسمارية عند السومايين، أم إلى الكتابة المصرية التي يظهر جلياً وفقاً لكثير من علماء الآثار أنها كانت أكثر تطوراً و قدماً من مثيلتها السومارية، كما أنها جاءت انعكاساً لنهضة كبيرة شهدتها مصر خلال هذا العصر

(1) Pamela R. Willoughby, The Evolution of Modern Humans in Africa: A Comprehensive Guide, AltaMira Press, 2007.

(2) For more details, Time Line of Digital Egypt for Universities, retrieved 9 September 2017. http://www.ucl.ac.uk/museums-static/digitalegypt//Welcome.html

فى مختلف أفرع العلوم، و هو ما حدا بالكثير من علماء الآثار و التاريخ إلى القول بأسبقية الكتابة المصرية على السومارية أو على الأقل باستقلالية نشأتهما و تصادف ابتكارهما فى ذات الفترة الزمنية[١].

و قد توجت هذه النهضة بتوحيد إقليمي مصر على يد القائد الأشهر نارمر (أو مينا) و بداية التأريخ لحكم الأسر الفرعونية الثلاثين الذي استمر تقريباً لثلاثة ألفيات تالية[٢].

و إذا كان تاريخ تأسيس الأسرة الفرعونية الحاكمة الأولى يرجع وفقاً لمعظم المؤرخين إلى ٣,٢٠٠ ق.م. و شهدت بعدها مسيرة الحضارة المصرية أمواج متوالية من التقدم و السقوط وصل فى بعض الأحيان إلى احتلالها أكثر من مرة، إلا أن النظام الفرعوني استمر قائماً على ذات الأسس العامة و ذلك حتى الاحتلال الإغريقي لمصر ٣٢٣ ق.م.

و على الرغم من هذا الاحتلال، فإن آثار مصر فى ظل حكم البطالمة أو الرومان من بعدهم، تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن التأثير المصري على الحضارتين الإغريقية و الرومانية أكثر بكثير من تأثيرهما على مصر و المصريين[٣].

لذا، فإن أهمية دراسة الدولة الفرعونية (٣,٢٠٠ ق.م. – ٣٢٣ ق.م.) تأتي بمقارنتها بالحضارات و النظم الأخرى التي حكمت مصر أو حتى بمقارنتها بغيرها من الحضارات الأخرى القديمة منها و الحديثة؛

(1) David O'Connor, The Narmer Platte: A New Interpretation. Emily Teeter (Editor), Before the Pyramids: The Origins of the Egyptian Civilization, The University of Chicago, 2011.

(2) " Indeed, writing and kingship were the twin cornerstones of pharaonic civilization, the defining characteristics that set it apart from other ancient cultures. Despite the efforts of archaeologists to uncover the rubbish dumps and workshops that would reveal the daily lives of ordinary citizens, it is the abundant written record and the imposing edifices left behind by the pharaohs that continue to dominate our view of ancient Egyptian history".

Toby Wilkinson, The Rise and Fall of Ancient Egypt, Random House-New York, 2011, p. 7.

(٣) "Comparatively speaking, but very little of the rich and productive civilization which flourished for at least five millenniums before Christ on the banks of the lower Nile, has survived in written documents for our enlightenment. Accident has preserved but here and there the merest scrap of the vast mass of written records which the incessant political, legal, administrative, religious, industrial, commercial, and literary activities filling the life of this ancient people, were constantly putting forth. We may make one exception; the religious literature, doubtless the least instructive, as a whole, of all their literary documents, has survived in an incalculable mass of temple inscriptions and papyri, which have never even been adequately published, much less exhaustively studied."

James Henry Breasted, Ancient Records Of Egypt Historical Documents From The Earliest Times To The Persian Conquest - Volume I: The First To The Seventeenth Dynasties, The University of Chicago Press, 1906, p. 3.

حيث استمر العصر الإغريقي من ٣٢٣ ق.م. إلى ٣٠ ق.م.

و استمر العصر الروماني من ٣٠ ق.م. و حتى ٦٤٠ م.

و بدأ العصر الإسلامي من ٦٤٠ م.

فمن حيث مدة بقاء الدولة، فإن الدولة المصرية القديمة تعتبر أطول دولة عرفها التاريخ استمرت قائمة وفقاً للملامح و القواعد العامة الأساسية، حيث استمرت على مدى ثلاثة ألفيات. و انعكس ذلك فى التقدم العلمي الذي شهدته مصر القديمة فى مختلف أوجه العلوم، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا أن بعض هذه العلوم نشأت نشأة مصرية خالصة، و خرجت من ضفافها لتنتشر فى باقي أرجاء العالم(١).

(١) لا يقتصر الأمر على التقدم فى العلوم الطبية و الهندسية و الكيمائية التي يشهد الجميع بتقدم و براعة المصريين فيها، و لا حتى فى الرسم و النحت حيث ما تزال الآثار الباقية تشهد على براعة لم تصل إليها أي حضارة أخرى، بل إن العديد من علماء الآثار و التاريخ وجدوا الكثير من الأدلة على أن أصل نشأة الفلسفة كان فى مصر و قد تعلمها المفكرين الإغريق من الكهنة المصريين الذين اعتبروها جزء من العلوم المقدسة التي يختص بها نخبة الشعب فقط.

Egypt may in some particulars have stimulated, if not Greek thought, at least the sculptural and decorative art of Greece, giving it a basis to start from; but, otherwise, it cannot be said that the world owes much of its purely intellectual progress to this people, about whose literary productions there is always something that is weak and childish. Philosophic speculation, however, seems to have received a contribution from the esoteric doctrine of the priesthood.

S. S. Laurie, The History of Early Education. The Ancient Egyptians, School Review, Vol. 1, No. 6 (Jun., 1893), pp. 354-5.

الفرع الثاني
التعليم فى مصر الفرعونية

مصر هي مهد الحضارة، و قد كانت قبلة العلم و العلماء؛ فكل فرع من فروع العلم ستجد له أصلاً راسخاً فى مصر القديمة، و من جامعاتها و مدارسها القديمة تخرج العلماء من مختلف أرجاء الأرض و نشروا هذه العلوم و طوروها. و بحصر العلماء الذين تخرجوا من مدارسها فى كل فرع من أفرع العلوم، يمكننا حينها التأكد بأنها كانت منبع كل علوم الحضارة الإنسانية[1].

و قد أضاءت منارة العلم فى مصر ربوع العالم بأسره، حيث استقبلت مدارسها و جامعتها منذ قديم الزمان طالبي العلم الأجانب، و تخرج منها الكثير من أكبر و أشهر المفكرين القدماء فى مختلف دول العالم.

و قد عرفت مصر التدرج فى مراحل التعليم المختلفة، و عرفت تطوراً ملحوظاً فى مناهج التدريس و بصفة خاصة للأطفال الصغار. كما عرفت التخصص الدقيق فى أفرع العلوم الطبية و التطبيقية فى مرحلة التعليم الجامعي .

(1) The Temple courts were crowded with foreigners eagerly seeking the benefits of the magnificent

library and the thorough scientific training.All the master minds of antiquity seem to have been educated here, and the University rolls present a brilliant galaxy of names.

Moses there became learned “in all the wisdom of the Egyptians.” Solon, the great lawgiver, owed his system to the teaching of the priests. Plato followed, and has left the records of his debt for us

to judge how great indeed was his Alma Mater. Thales of Miletus received his education in science here, and as a result gave to the world the knowledge of electricity. Later on, the library and the

University were transferred to Alexandria, and then we find Euclid in charge of the mathematical department. Ctesibus who invented the force-pump, and Hero the pioneer of the steam-engine, came to Egypt for instruction in mechanics ; Hypatia, too, who divides with them the renown of introducing the hydrometer, studied there, and afterwards rose to fame as a lecturer. And who can relate half the wonderful inventions that emanated from the mind of Archimedes, who is considered the greatest mechanical genius of that, or any other, age ! He was very young when he arrived at this University, but there he learned the fundamental principles on which his inventions were based. The hydraulic press, cog-wheels, pulleys, etc., are all attributed to him. Considering the marvels displayed by this race in hydraulic engineering, and in the transport and erection of gigantic masses of stone, we

cannot but think that all this mechanical knowledge was in existence, and that these great men only carried the inventions to the outer world, no doubt improving and developing them. Had they remained in Egypt we would probably never have heard of them. It is their work at the Courts of other nations, whither they carried the learning of the Egyptians, that has handed down their fame to posterity.”

A. BOTHWELL GOSSE, THE CIVILIZATION OF THE ANCIENT EGYPTIANS, T. C. & E. C. JACK, Ltd. London, 1916., pp. 20-21

و كانت هناك مدارس لتعليم الأطفال الكتابة فى مختلف ربوع مصر (التعليم الابتدائي)، و بعدها كان هناك فرعين للتعليم فى مصر؛ التعليم المهني للالتحاق بمهنة محددة أو التعليم الشامل وصولاً إلى التعليم الجامعي بأفرعه المختلفة فى ذلك العصر.

و قد كان واضحاً أن هناك اختلافاً كبيراً ما بين دراسة العلوم النظرية و التطبيقية أو الطبيعية فى مصر القديمة؛ حيث يدرس طالب العلوم النظرية الكثير من تلك العلوم، و لم تكن قد شهدت التخصص الدقيق الذي نعرفه اليوم.

أما العلوم التطبيقية و الطبيعية، فقد برع المصريون فيها إبداعاً غير مسبوق، بل و ما تزال بعض هذه الإبداعات تبهر الباحثين حتى اليوم. وكان من نتاج ذلك أن عرف المصريون الكثير من التخصصات الدقيقة، التي لم تعرفها الحضارة إلا بعدها بآلاف السنين.

وهذا التأثير الكبير فى نشأة مختلف العلوم و نشر مبادئها لم تصل إليه أي حضارة أخرى سواء قديماً أو حديثاً. لذا، فإن التساؤل المطروح هو كيف تمكن المصريون من القيام بهذا الدور المحوري لنشر العلوم و الثقافة فى كافة أرجاء الأرض؟

و الإجابة عن هذا التساؤل تكمن فى موضوع بحثنا، مجانية التعليم، فقد كان التعليم فى مصر القديمة مجاناً و متاحاً للجميع، و هناك الكثير من المؤشرات على أن مرافق التعليم فى مصر الفرعونية فتحت أبوابها مجاناً للمصريين و للأجانب على السواء، و كان نشر العلم و إتاحته للجميع هدفاً أساسياً للدولة المصرية القديمة، و أصبح الإلمام بالقراءة و الكتابة هو الأصل فى الشعب المصري، و فتحت المدارس أبوابها بالمساواة بين الجميع. و كانت المدارس و الجامعات هي سبيل التقدم لكل طبقات المجتمع، فمن خلالها يمكن أن يتقدم أبناء الفقراء إلى سلك الموظفين العموميين للوصول إلى أعلى المناصب بالدولة[1].

(1) «The “public-schools” of Egypt were open to all comers, and the son of the artizan sat on the same bench with the son of the noble, enjoyed the same education, and had an equal opportunity of distinguishing himself. If he showed sufficient promise, he was recommended to adopt the literary life ; and the literary life was the sure passport to State employment. State employment once entered upon, merit secured advancement ; and thus there was, in fact, no obstacle to prevent the son of a labouring man from rising to the very highest positions in the administration of the empire. Successful ministers were usually rewarded by large grants of land from the royal domain ; and it follows that a clever youth of the labouring class might by good conduct and ability make his way even into the ranks of the landed aristocracy.

On the other hand, practically, the condition of the labouring class was, generally speaking a hard and sad one. The kings were entitled to employ as many of their subjects as they pleased in forced labours, and monarchs often sacrificed to their inordinate vanity the lives and happiness of thousands. Private employers of labour were frequently cruel and exacting ; their overseers used the stick, and it was not easy for those who suffered to obtain any redress. Moreover, taxation was heavy, and inability to satisfy the collector subjected the defaulter to the bastinado. Those who have studied the antiquities of Egypt with most care, tell us that there was not much to choose between the condition of the ancient labourers and that of the unhappy fellahin x of the present day.”

GEORGE RAWLINSON, The Story of the Nations: THE STORY OF ANCIENT EGYPT, NEW YORK G. P. PUTNAM’S SONS, 1897., p. 45.

و من هنا جاء الدور المحوري الذي لعبته مصر فى نشر علومها لكافة أرجاء العالم، و ساهمت بالدور الأهم فى نشر الفكر و الثقافة، و كان لها الفضل فى نشأة و تطور العلوم المختلفة و تطوير الحضارة الإنسانية تطوراً جذرياً. هذا الدور الذي ظل المؤرخون على مدى آلاف السنين يتناقلونه فيما بينهم، على الرغم من سقوط اللغة المصرية القديمة ذاتها فى دوامة التاريخ و صارت فى طي النسيان، حتى تم فك رموز هذه اللغة فى العصر الحديث، و حينها ظهر جلياً أن ما تناقله المؤرخون لم يكن سوى غيضٌ من فيض، و أن هذه الحضارة التي أقيمت على مبدأ نشر العلم المجاني لكل إنسان كانت أعظم الحضارات التي عرفتها الإنسانية.

المطلب الثاني

مجانية التعليم فى العصر الإسلامي

و قبل الولوج إلى بحث مجانية التعليم فى مصر بعد الفتح الإسلامي، فإنه يتوجب عليه ابتداءً أن نعرض لنبذة تاريخية للفتح الإسلامي فى مصر، ثم بعدها نعرض لواقع التعليم فى مصر خلاله.

الفرع الأول

نبذة تاريخية عن الفتح الإسلامي لمصر

نظراً للموقع الاستراتيجي لمصر كجسر واصل بين مختلف قارات العالم و المعبر ما بين البحار الرئيسية، فقد كان طبيعياً أن تكون مطمعاً لكل القوى المتصارعة للسيطرة على التجارة الدولية أو الساعية لبسط نفوذها على مختلف أقطار العالم.

و نتيجة لذلك، فقد تعرضت مصر على مدى تاريخها إلى الكثير من الاعتداءات وصلت بعضها إلى درجة احتلالها عدة مرات و لسنوات طوال. إلا أن تجذر الثقافة المصرية القديمة الذي نتج عن آلاف السنين من نشر العلم بين فئات الشعب، أعاق إلى حدٍ كبير دون قدرة المحتل و إحداث تغييرات محسوسة على هوية المصريين و بصفة خاصة فيما يتعلق بدينهم و لغتهم.

فبالنسبة إلى اللغة فقد تغيرت من اللغة المصرية إلى الإغريقية فى العصر البطلمي، ثم الرومانية فى العصر الروماني. إلا أن الملاحظ أنه طوال العصرين البطلمي و الروماني ظلت اللغة المصرية لها حضور قوي بين المصريين.

و إذا كان تغيير اللغة أمراً ضرورياً فى بعض الأحيان تحت ضغط المحتل الحاكم و سيطرته التامة على كل شئون الدولة، فإن تغيير العقيدة يرتبط أكثر باقتناع الشعب بأفكار و معتقدات تنظم علاقة الإنسان بربه و بعلاقاته بغيره من البشر.

و يظهر جلياً بدراسة تاريخ مصر القديم و الحديث أن تغيير الديانة السائدة فى مصر هو دائماً أمر صعب و نادر؛ فالمصريون الذي أسسوا ديانتهم الخاصة القائمة على فكرة الحياة الدنيا و البعث بعد الممات و الحياة الآخرة، لم يتأثروا بالاحتلالين الإغريقي و الروماني فى تغيير ديانتهم.

ثم تغيرت الديانة إلى المسيحية، ليس بتأثير الحكم الروماني الذي تحول رسمياً إلى الديانة المسيحية خلال القرن الرابع الميلادي، و إنما نتيجة هرب السيدة مريم العذراء إلى مصر ثم نشر مارمرقس للعقيدة المسيحية خلال القرن الأول الميلادي، حيث سبق المصريون الرومان فى دخولهم إلى المسيحية.

و الصراع ما بين المسيحيين الأقباط و بين الحكم الروماني لم يقتصر فقط على مرحلة ما قبل تحول الرومان إلى المسيحية، و لكنه امتد أيضاً للمرحلة التالية لتحول الإمبراطورية الرومانية إلى الديانة الجديدة، و ذلك نتيجة للخلاف ما بين الكنيستين الشرقية القبطية (المصرية) و الكنيسة الرومانية الغربية.

استمر هذا الصراع حتى تاريخ الفتح الإسلامي لمصر على يد عمرو بن العاص ٦٤١م، و هو ما سهل فتح مصر و سهل أيضاً حكمها و نشر الإسلام فيها. و بعد الفتح الإسلامي غير المصريون ديانتهم و لغتهم الأم، و لم يعد للغة القديمة استخدامات باقية و اندثرت، و اندثر من بعدها جانب كبير من تاريخ مصر القديم.

و قد تداول على حكم مصر منذ الفتح الإسلامي العديد من الأسر الحاكمة كالتالي:

الخلافة الراشدة	٦٤٠م – ٦٦١م.
الأمويون	٦٦١م – ٧٥٠م.
العباسيون	٧٥٠م – ٨٦٨ م.
الطولونيون	٨٦٨م – ٩٠٥م.
العباسيون	٩٠٥م – ٩٣٥م.
الإخشيديون	٩٣٥م – ٩٦٩م.
الفاطميون	٩٦٩م – ١١٧١م.
الأيوبيون	١١٧١م – ١٢٥٠م.
المماليك	١٢٦١م – ١٥١٧م.
١٠- العثمانيون	١٥١٧م – (١٨٠٥م)

و إذا كان نطاق البحث لا يتسع للدراسة الدقيقة المستفيضة لنظام التعليم فى كل أسرة من الأسر، فإننا سنكتفي فقط بعرض مجمل السياسة العامة التي سادت فى مختلف هذه العصور فى الفرع التالي.

الفرع الثاني

التعليم فى مصر بعد الفتح الإسلامي[١]

بعد الفتح الإسلامي أنشأ عمرو بن العاص أول مسجد فى مصر و القارة الافريقية، و أُطلق عليه من حينها جامع عمرو بن العاص، و كان أول مركز لتعليم العلوم الشرعية فى مصر، و درَّس فيه كبار الصحابة و التابعين، و بالطبع كان هذا التدريس جزء من الواجب الشرعي بالدعوة إلى اللّه، و يتم تطوعاً من هؤلاء العلماء دون أي مقابل، بينما فى بعض الحالات اللاحقة لعصر الصحابة كان يتم دفع أجور بعض العلماء من خلال مصارف الزكاة الشرعية أو الصدقات أو الأوقاف.

إلا أن تدريس العلوم الشرعية فى ذلك الوقت كان يتم من خلال حلقات و دروس وعظ دينية يلقيها بعض الفقهاء، و لم يكن يتم من خلال منهج دراسي و علمي محدد أو بواسطة مؤسسة تعليمية قائمة بذاتها لها قواعدها و أهدافها.

و ظل هذا الوضع هو السائد فى مصر إلى أن دخلها الفاطميون بقيادة جوهر الصقلي فحرص على إنشاء الجامع الأزهر ٩٧٢ م و تولت بعد ذلك الدولة الفاطمية دفع أجور العلماء للتدريس فى الجامع الأزهر لنشر المذهب الشيعي فى مصر و شمال أفريقيا، و كان أيضاً تحصيل العلم مجاناً دون أي مقابل يدفعه طالب العلم، و متاحاً للجميع، إلى أن أطاح صلاح الدين الأيوبي بالدولة الفاطمية و بدأ فى إنشاء الكثير من المدارس، مثل المدرسة الناصرية والمدرسة القمحية والمدرسة الصالحية والمدرسة الفاضلية، لتكون منبراً لتدريس المذهب السني الوسطي و ليتصدى لدور الأزهر السابق فى نشر المذهب الشيعي.

و بعد الدولة الأيوبية عاد الأزهر من جديد للعب دوره كقبلة لتعليم العلوم الشرعية و تخريج العلماء فى عهد المماليك، و ذلك وفقاً للمنهج السني، مع تدريسه كافة المذاهب الفقهية المختلفة. و يجدر بالذكر أن هذه الجوامع لم يكن يدرس بها العلوم الفقهية فقط، و لكن كان يوجد ببعضها حلقات لمختلف العلوم الأخرى كالطب و الفلسفة و الرياضيات، إلا أن الإقبال على تعلم هذه العلوم و تأثير هذه المساجد

(١) للمزيد من المعلومات عن التعليم فى العصر الإسلامي يمكن الرجوع إلى المراجع الآتية:
د. أحمد شلبي، التربية الإسلامية: نظمها – فلسفتها – تاريخها. دار النهضة المصرية – القاهرة. ١٩٧٣.
د. عبدالله عبدالدايم، التربية عبر التاريخ: من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين. دار العلم للملايين – بيروت. الطبعة الخامسة ١٩٨٤.

الجامعة فى تدريسها لم يكن ليقارن بدورها فى تدريس العلوم الشرعية و تخريج العلماء و القضاة.

و قد كانت هناك الكثير من مراكز التعليم فى مصر نشأت و تطورت منذ الفتح الإسلامي؛ فالتعليم الذي بدأ من خلال المساجد الجامعة، تطور مع الوقت و أصبح يتم فى المدارس الشرعية التي نشأت مبكراً منذ القرن الخامس الهجري، ثم فى الكتاتيب التي أُنشئت كمدارس مصغرة فى القرى و الأحياء، كما كان من بين تلك المراكز المكتبات التي أنشئت لتجميع المؤلفات الشرعية المختلفة.

و قد ظل النظام القائم طوال هذه العقود فى نشر العلم هو إتاحته لعموم الناس مجاناً، و ساهم فى ترسيخ ذلك النظام عاملين مهمين: الأول، هو نظرة العلماء لنشر العلم باعتباره واجباً شرعياً عليهم بُغية نشر دعوة التوحيد. و الثاني، إدراك الكثيرين لأهمية تخصيص جزء من أموالهم للصرف على نشر هذا العلم، و من ثم خُصص جانبٌ كبيرٌ من الصدقات و الأوقاف لدفع أجور العلماء، بل و أكثر من ذلك لدعم طلبة العلم سواء بالمال اللازم لمعيشتهم أو بتوفير مأوى و مأكل مجاناً لهم لإعانتهم على تحصيل العلم دون عناءٍ.

إلا أن تصارع الحكام و تساقط الدول كان له القول الفصل فى الانحدار الذي أصاب الدول الإسلامية عامةً و مصر فى قلبها، و هو الانحدار الذي تجلى فى الاحتلال الفرنسي لمصر و الذي تم بلا مقاومة حقيقية تُذكر، و ساهم ذلك فى التحولات الجذرية التي أعقبته.

المبحث الثاني

مجانية التعليم فى مصر فى العصر الحديث

لاشك أن هناك تحولاتٍ جذريةٍ جلية ضربت مصر منذ الحملة الفرنسية و نجاحها فى احتلال مصر فى ١٧٩٨ ثم جلائها عن مصر عام ١٨٠١، و ما مثلته تلك الحملة من صدمة حضارية فارقة للشعب المصري، بل و امتداد تأثير هذه الصدمة إلى باقي الشعوب العربية المجاورة.

لذا، فإنه يجب علينا قبل عرض واقع مجانية التعليم فى مصر خلال العصر الحديث أن نمهد لذلك بعرض إرهاصات الولوج إلى العصر الحديث و تأثير الحملة الفرنسية على مصر(مطلب تمهيدي)، ثم نتبعه بعد ذلك بمطلب أول نعرض خلاله تطور نظام التعليم تحت حكم الأسرة العلوية التي أسسها محمد علي باشا من ١٨٠٥ و حتى ١٩٢٣ عندما تم تقنين مجانية التعليم فى الدستور المصري الأول بعد سقوط الخلافة العثمانية و استقلال مصر. ثم ننتهي فى المطلب الثاني بعرض مجانية التعليم فى الدساتير المصرية المتعاقبة.

المطلب التمهيدي

مصر بعد الحملة الفرنسية

كان للمصريين تاريخ طويل فى الحروب و الصراعات الإقليمية و بصفة خاصة أثناء الحروب الصليبية الممتدة، ثم من بعدها الغزو المغولي. و قد لعبت مصر الدور الرئيسي فى القضاء على الخطرين الذين كادا يقضيان تماماً على الدولة الإسلامية.

و كان المصريون يعلمون بالأطماع الأجنبية فيها نظراً لأهميتها الاستراتيجية. و فى ذات الوقت لم يكن تردي الأوضاع فى مصر و استشراء الظلم يخفى على أحد. و كان المصريون فى أواخر القرن الثامن عشر فى قمة التخلف و الفقر و القهر، إلا أنهم لم يتوقعوا أن تتفاقم مشاكلهم بالاحتلال الفرنسي الكامل لأرضهم.

و على غرار الإسكندر الأكبر الذي جاء إلى مصر و ذهب إلى معبد "آمون" للصلاة فيه تقرباً للشعب المصري و ليس للإله آمون. حاول نابليون على خطى الإسكندر أن يمهد الأرض لغزوه مصر، من خلال إدعائه الإسلام و انضوائه تحت لواء السلطان العثماني، و وزع فيها خطاباً يتقرب به إلى الشعب المصري كان نصه كالآتي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، لا اله الا الله وحده ولا شريك له فى ملكه...

أيها المشايخ والأئمة...قولوا لأمتكم أن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى روما الكبرى وخرّبوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحّث النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطا وطردوا منها الكواللييرية الذين كانوا يزعمون أن الله يطلب منهم مقاتلة المسلمين، ومع ذلك فإن الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني .. أدام الله ملكه... أدام الله إجلال السلطان العثماني أدام الله إجلال العسكر الفرنساوي لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية".

و بعيداً عن استعراض الكثير من أحداث و آثار الحملة الفرنسية على مصر التي استمرت ثلاث سنوات، إلا أن أهم ما يلفت نظرنا بعد هزيمة الفرنسيين على يد الإنجليز هو ما مثلته تلك الحملة من صدمة حضارية كبرى لدى المصريين، أشعرتهم بمدى التخلف الذي وصلت إليه دولتهم بسبب فساد المماليك و ضعف السلطة العثمانية.

من هنا تعالت الأصوات الشعبية المناوئة لكلٍ من المماليك و الوالي المعين من السلطان العثماني، و اختار رجال الدين و الأعيان تولية محمد علي والياً على مصر، و رفعوا طلباً بذلك إلى السلطان العثماني، الذي وافق على طلبهم هذا فى آخر الآمر، و كان جلياً أنه جاء برؤية شاملة لتطوير هذه الولاية و توفير كافة الإمكانات اللازمة لتأسيس دولة وفقاً للمفاهيم و العلوم الحديثة على التفصيل التالي.

المطلب الأول

نظام التعليم فى عصر الأسرة العلوية

كان لمحمد علي رؤية واضحة و محددة و ثاقبة فى كيفية البدء فى نهضة شاملة فى مصر، و كانت اللبنة الأولى هي التعليم، فاهتم به اهتماماً بالغاً. و حرص على إرسال البعثات لنقل علوم الغرب إلى مصر، ليس فقط ليتعلموها هناك، و إنما الأهم من ذلك لينقلوها إلى مصر و ينشئوا مراكز للتعليم و التصنيع فى مصر.

و قد أرسل محمد علي بعثة عام ١٨٢٦ على السفينة الحربية الفرنسية "لاترويت"، و ضمت البعثة أكثر من ٤٠ مبعوثاً، و شاء الله أن يصبح أشهرهم على الإطلاق أحد المرافقين لهؤلاء المبعوثين، و هو إمام البعثة و واعظها الشيخ الشاب رفاعة الطهطاوي البالغ من العمر حينها ٢٤ سنة. و هو شاب من صعيد مصر نشأ فى أسرة مصرية بها الكثير من رجال الدين والقضاء، و قد انضم إلى الأزهر الشريف للسير على خطى عائلته فى مجال الدعوة و القضاء.

عاد الشيخ الطهطاوي إلى مصر و قد حصل على عدة شهادات فى الترجمة و نقل تجربته فى هذه البعثة فى كتابه الشهير "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" أو "الديوان النفيس بإيوان باريس". و فى هذا الكتاب تحدث بكل دقة عن تفاصيل الحياة فى فرنسا و ترجم دستورها و تحدث عن ثوراتها و نظام القضاء فيها و نظام التعليم[١].

و هكذا، فقد كان للشيخ الطهطاوي الفضل فى وضع النبتة الأولى لنظام التعليم الحديث فى مصر. و لم يقتصر تأثيره على مؤلفاته العديدة الساعية لإحياء الأمة، أو حتى ترجماته للعديد من دروب العلم باللغات الأجنبية، بل جاء دوره الأهم من خلال مسيرته العملية و بصفة خاصة دوره فى إنشاء و إدارة العديد من المدارس.

حيث أنشأ سنة ١٨٣٣ مدرسة التاريخ و الجغرافيا، ثم أنشأ عام ١٨٣٥ مدرسة الألسن، و أنشأ مدرسة الإدارة سنة ١٨٤٤، و قسم الإدارة الزراعية سنة ١٨٤٧، كما تم تكليف الطهطاوي بتفتيش عموم مكاتب الأقاليم، و نظارة "الكتبخانة الإفرنجية" و "مخزن عموم المدارس"، و تفتيش مدارس "الخانقاه" و "أبوزعبل"، و رئاسة امتحان تلاميذ المكاتب، فكان يركب النيل إلى حيث المكاتب بالقرى و يتخير نجباء تلاميذها،

(١) د. محمد عمارة، الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي: الجزء الثاني، دار الشروق – القاهرة، ٢٠١١.

و يأتي بهم إلى القاهرة فيلحقهم بالمدرسة التجهيزية، تمهيداً لإدخال المتفوقين منهم جامعة مصر المدنية الأولى (مدرسة الألسن)[١].

و إذا كان الشيخ الطهطاوي سعى إلى نشر العلم و تطويره رغبةً فى إنهاض الأمة و إحيائها، فإن محمد علي اتفق معه فى ذات السعي و لكن لتحقيق أهدافه السياسية و العسكرية التي كانت جزءاً أساسياً فى الكثير من قراراته.

"فمع تولي محمد علي حكم مصر فى عام ١٨٠٥ بدأ فى جعل التعليم وسيلة لتحقيق أهدافه العسكرية والسياسية والاقتصادية، فقام بإنشاء مجلس شورى المدارس عام ١٨٣٦ وكان يتبع ديوان الجهادية، وفي ٩ مارس ١٨٣٧ انفصل وسمي ديوان المدارس وأصدر مجلس شورى المدارس لائحة التعليم الابتدائي ... كما قامت الحكومة بدمج الكتاتيب الأهلية فى نظام التعليم العام، وأنشئت تدريجياً مدارس أولية لتحل محل الكتاتيب. أنشأت أول مدارس تجهيزية (ثانوية) سنة ١٨٢٥، وكانت تستقبل طلاب الكتاتيب والأزهر وتقوم على تعليمهم وتربيتهم، وحددت مدة الدراسة بها بأربع سنوات دراسية ينتقلون بعدها إلى المدارس الخصوصية، ويتلقى طلابها مواد دراسية موحدة تجمع بين الفنون الحربية والعلوم الأدبية دون تشعيب، وبذلك كانت المدارس التجهيزية تمثل المرحلة الثانية والوسطى من مراحل التعليم العام، وكانت تمثل حلقة الوصل بين مكاتب المبتديان وبين المدارس العليا. كانت مدرسة العمليات ببولاق أولى مدارس التعليم الفني الصناعي وكان الغرض من إنشائها تخريج الفنيين لسد احتياجات الجيش، فلما استنفذ الجيش أغراضه منها هبط مستواها وأهمل شأنها.

كما أسس مُحمد علي أول مدرسة حربية فى أسوان فى عام ١٨٢٠، كما تم فتح مدرسة أخرى فى القلعة باسم دار الهندسة واعتبرت نواة لمدرسة جديدة فى بولاق باسم مدرسة الهندسة افتتحت فى عام ١٨٢١. نقلت مدرسة الضباط من بولاق إلى القصر العيني فى ١٨٢٥ وسميت المدرسة الجهادية. ونقلت فى عام ١٨٣٦ إلى أبي زعبل. وكذلك تم إنشاء مدرسة أركان حرب فى الخانكة، وتم فتح مدرستين للموسيقى العسكرية فى عام ١٨٢٤. كذلك تم فتح مدرسة الفرسان فى عام ١٨٣٠. وفي عام ١٨٣١ افتتحت مدرسة للمدفعية بِطُرَة أطلق عليها اسم مدرسة الطوبجية. وفي عام ١٨٣٢ افتتحت مدرسة المُشاة فى الخانكة ثم نقلت إلى دمياط ثم لأبي زعبل. كما تم فتح

(١) المرجع السابق، الجزء الأول، ص. ٦٣ و ما بعدها.

المدرسة البحرية فى عام ١٨٢٥ وتقرر نقلها فى عام ١٨٢٧ إلى رأس التين بالإسكندرية. وفي عام ١٨٣٣ افتتحت مدرسة الذخيرة الحربية. وفي عام ١٨٣٤ افتتحت مدرسة المعادن.

أما بالنسبة للمدارس المدنية فقد تأسست مدرسة الطب وبدأت الدارسة فيها عام ١٨٢٧ بإنشاء مستشفى فى أبي زعبل، ثم مدرسة الصيدلة فى أبي زعبل عام ١٨٣٠، ومدرسة الولادة فى عام ١٨٣١ كجزء من مدرسة الطب. وافتتحت المهندسخانة فى بولاق عام ١٨٣٤ وهي مدرسة قد تكون مرتبطة بدار الهندسة التي تأسست فى عام ١٨٢٠. وافتتحت مدرسة الكيمياء التطبيقية فى عام ١٨٣١. ولتخريج المُحاسبين والكَتَبة افتتحت الدرسخانة الملكية فى عام ١٨٢٩. كما تم فتح مدرسة الصنايع فى رشيد عام ١٨٣١ ومدرسة الري فى بولاق عام ١٨٣١، وكذلك مدرسة الترجمة أو - مدرسة الألسن فيما بعد - عام ١٨٣٦. أما مدرسة الزراعة فافتتحت فى عام ١٨٣٣ فى نبروه بالمنصورة ثم انتقلت إلى شبرا فى عام ١٨٣٦. وفي عام ١٨٢٧ تقرر إنشاء مدرسة للبيطرة فى رشيد للاهتمام بالخيول الحربية ونقلت لاحقاً فى عام ١٨٣٧ إلى حي شبرا لكي تكون بجانب مدرسة الزراعة. وفي عام ١٨٤٠ افتتحت مدرسة القانون و الإدارة.

انعكس انحدار الدولة خلال عهد عباس الأول على نظام التعليم فألغيت المدارس بعد تعطيل الكثير منها فى آخر حكم محمد علي باشا ولم يبق منها إلا القليل، وفي عهد سعيد استمرت سياسة إغلاق المدارس وتضييق الخناق على التعليم حتى أصبح ديوان المدارس لا يشرف إلا على مدرستين فقط هما "المهندس خانة والطب"، وذلك حتى ألغي فى عام ١٨٥٤.

و جاء عصر إسماعيل ليعيد لمصر نهضتها التعليمية، فاهتم بالكتاتيب وأدخلها فى نطاق النظام التعليمي وأنشأ مجلس المعارف للمشورة فى أمور التعليم. فى ١٥ أبريل ١٨٦٨ تولى علي مبارك نظارة المعارف وعمل على إتاحة التعليم لكل من يرغب دون تمييز، كما وضع أول تخطيط علمي لمشروع التعليم القومي فيما سمي بلائحة رجب، وفي عام ١٨٧٢ صدر أول قانون للأزهر الذي نظم حصول الطلاب على الشهادة العالمية (الدكتوراه). وفي عام ١٨٨٠ شكلت الحكومة لجنة لتنظيم التعليم أطلق عليها "مجلس قومسيون المعارف"[١].

(١) هبة الأصبحي، كيف بدأ التعليم وكيف تطور، الرياض، ٢٠١٧، ص.١٣.

و هكذا، و حتى نهايات القرن التاسع عشر، فإن أي نهضة تعليمية فى مصر منذ عصور الفراعنة لم تعرف سوى وسيلة واحدة لذلك، و هي إتاحة التعليم للجميع و على السواء و بدون مقابل، و لم تعرف مصر حتى حينه فكرة التمييز فى التعليم و منعه عن الفقراء، حتى جاء الاحتلال الإنجليزي لمصر، الذي وضع سياسة التعليم فى مصر وفقاً لاستراتيجيته الاستعمارية الهادفة إلى الحد من نشر التعليم، و الاقتصار فقط على استهداف تخريج العمالة القادرة على القراءة و الكتابة باللغات الأجنبية حتى يمكن استخدامهم فى الدواوين و الإدارات المختلفة التي يديرها.

"حيث انعكست آثار الاحتلال الإنجليزي وظروفه السياسية والاقتصادية والاجتماعية على نظام التعليم المصري. واتبعت سلطات الاحتلال سياسة تشجيع التعليم الأجنبي، بالإضافة إلى وجود أنواع أخرى من المدارس التي لم تكن ترقى إلى نفس المستوى، مما أدى إلى ظهور مدارس الجمعيات الخيرية الإسلامية والقبطية الأولية والابتدائية والفنية. لكن ومع ذلك حرص الإنجليز على توفير تعليم شعبي رخيص فى الكتاتيب القديمة وتم ضمها إلى نظارة المعارف عام ١٨٨٩، والمدارس الأولية، والمدارس الأولية (الراقية) وتم إنشائها عام ١٩١٦ للبنين والبنات، ومدارس البنات الإعدادية التحضيرية لمدارس المعلمات. وكانت المواد يتم تدريسها باللغة الإنجليزية أو الفرنسية إلى أن أصبح التدريس باللغة العربية عام ١٩١٥"[١].

و إذا كان الاحتلال الإنجليزي لمصر هو الذي أسس فكرة التعليم بمقابل و ضيق جداً من التعليم المجاني الذي ساهم فى كل مراحل النهضة التي عرفتها مصر على مدى آلاف السنين، كما أنه سعى إلى ترسيخ التعليم باللغات الأجنبية و حد من التعليم باللغة العربية، فقد كان طبيعياً أن يتبنى الجانب الأكبر من تيارات الحركة الوطنية الاتجاه المقابل المدافع عن مجانية التعليم و تعريب العلوم.

(١) المرجع السابق، ص.١٧.

المطلب الثاني

مجانية التعليم فى الدساتير المصرية

منذ النهضة التعليمية الكبرى التي انطلقت فى عصر محمد علي باشا على يد رفاعة الطهطاوي و علي مبارك و غيرهم من مفكري النهضة، مثَّل الاحتلال الإنجليزي و ما تبعه من اعتداءات على النظام التعليمي التحدي الأكبر لهذه النهضة، و ظلت التدخلات الإنجليزية فى العملية التعليمية تستهدف الحد من انطلاق نهضة جديدة قد تقوض أطماع المحتل فى مصر. لذلك، فمع كل خطوة خطتها مصر فى سبيل استقلالها، كانت تعلو من جديد المطالبات الوطنية بتعريب العلوم و الدواوين و ضمان مجانية التعليم لكل المصريين.

و بعد سقوط الخلافة العثمانية و استقلال مصر)الشكلي(فى ١٩٢٢، حرص دستور ١٩٢٣ على التعبير عن الآمال الوطنية فى كافة المجالات، و فى مقدمتها فى مجال التعليم. حيث نصت المادة ١٩ من ذلك الدستور على أن "التعليم الأولي إلزامي للمصريين من بنين و بنات، و هو مجاني فى المكاتب العامة". و هو ذات النص الوارد بدستور ١٩٣٠.

و جاء التأكيد على مبدأ المجانية من جديد فى دستور ١٩٥٦ بالنصوص الآتية:

(مادة ٤٩): التعليم حق للمصريين جميعاً تكفله الدولة بإنشاء مختلف أنواع المدارس أو المؤسسات الثقافية و التربوية و التوسع فيها تدريجياً. و تهتم الدولة بنمو الشباب البدني و العقلي و الخلقي.

(مادة ٥٠): تشرف الدولة على التعليم العام، و ينظم القانون شئونه و هو فى مراحله المختلفة بمدارس الدولة بالمجان فى الحدود التي ينظمها القانون.

(مادة ٥١): التعليم فى مرحلته الأولى إجباري و بالمجان فى مدارس الدولة.

ثم جاء دستور ١٩٦٤ و اتخذ خطوة فارقة فى سبيل مجانية التعليم بنصه فى المادة (٣٩) على الآتي: "تشرف الدولة على التعليم العام، و ينظم القانون شئونه. و هو فى مراحله المختلفة فى مدارس الدولة و جامعاتها بالمجان".

ثم تأكد هذا التوسع فى تطبيق مجانية التعليم بدستور ١٩٧١ الذي نص على الآتي:

"(مادة ٢٠): التعليم فى مؤسسات الدولة التعليمية مجانى فى مراحله المختلفة.

(مادة ٢١): محو الأمية واجب وطني تجند كل طاقات الشعب من أجل تحقيقه".

و بعد ثورة يناير ٢٠١١ تعالت الأصوات الوطنية المطالبة بإيلاء اهتماماً خاصة بمجانية و جودة التعليم، و انعكس هذا الاهتمام على الدستورين اللاحقين على الثورة، حيث نصت المادة (٥٨) من دستور ٢٠١٢ على الآتي:

"لكل مواطن الحق فى التعليم عالي الجودة، وهو مجانى بمراحله المختلفة فى كل مؤسسات الدولة التعليمية، وإلزامي فى مرحلة التعليم الأساسي، وتتخذ الدولة كافة التدابير لمد الإلزام إلى مراحل أخرى".

كما نُص على المجانية فى دستور ٢٠١٤ بالمواد الآتية:

(مادة ٢/١٩): "التعليم إلزامي حتى نهاية المرحلة الثانوية أو ما يعادلها، وتكفل الدولة مجانيته بمراحله المختلفة فى مؤسسات الدولة التعليمية، وفقاً للقانون".

(مادة ٢١): "تكفل الدولة استقلال الجامعات والمجامع العلمية واللغوية، وتوفير التعليم الجامعي وفقاً لمعايير الجودة العالمية، وتعمل على تطوير التعليم الجامعي وتكفل مجانيته فى جامعات الدولة ومعاهدها، وفقا للقانون".

و الدراسة الدقيقة لمختلف النصوص الدستورية المنظمة لمجانية التعليم توضح أن هناك منهجان لصياغة تلك النصوص، المنهج الأول يؤكد على مجانية التعليم تأكيداً مطلقاً لا مساس به، و هو المنهج المتبع فى دساتير ١٩٢٣ – ١٩٣٠ – ١٩٦٤ – ١٩٧١ – ٢٠١٢. بينما المنهج الثاني فهو الذي يؤكد على مجانية التعليم و لكن يقيد هذا الحق الدستوري بالإحالة إلى القانون المنظم لذلك، و هو المنهج الذي تم اتباعه فى دستوري ١٩٥٦ و ٢٠١٤[1]، و لا يخفى ما للقوانين من دور فى الحد من بعض الحقوق الدستورية عند تنظيمها.

و بخلاف هذه الملاحظة، فإنه من مجمل هذه النصوص يتضح لنا جلياً تجذر و تطور فكرة مجانية التعليم فى كافة الدساتير المصرية، منذ دستور ١٩٢٣ و حتى الدستور الحالي ٢٠١٤، حتى أصبحت مجانية التعليم إحدى الركائز الأساسية للدساتير المصرية، و التي لا يوجد عليها أي خلاف و لا يمكن إهدارها أو المساس بأحكامها.

(١) يجدر بالذكر أن مشروع قانون لجنة العشرة للدستور الحالي ٢٠١٤ لم يتضمن هذه الإحالة إلى القانون، و لكن أضافتها لاحقاً لجنة الخمسين عند صياغتها النهائية لنصوص الدستور.

و لا يخفى على أحد أن أزمة المنظومة التعليمية قد استفحلت مع التحولات السياسية و الاقتصادية التي ضربت مصر خلال سبعينات القرن الماضي، و بصفة خاصة مع الانفتاح الاقتصادي و التوسع فى التعليم الخاص على حساب التعليم العام[١].

و على الرغم من ذلك، فإن هذه التوجهات بدلاً من أن تحافظ على مستوى الخدمة التعليمية، فإنه فى المقابل قد أدى إلى انهيار شبه تام لترتيب مصر فى المؤشرات الدولية[٢]. فاستنادًا إلى نتائج دراسة الاتجاهات الدولية فى الرياضيات والعلوم TIMS ٢٠١٥ والاختبار الدولي PIRLS ٢٠١٦، فإن أكثر من نصف الطلاب فى مصر لا يستوفون حتى المستوى المنخفض فى تقييمات التعلم الدولية - ٦٩٪ من طلاب الصف الرابع فى القراءة ، ٥٣٪ من طلاب الصف ٨ فى الرياضيات ، و ٥٨ ٪ من طلاب الصف الثامن فى العلوم. من طلاب الصف الرابع، تصنف مصر من أقل الدول المشاركة بترتيب ٤٩ من أصل ٥٠ دولة فى القراءة ، و٣٤ من أصل ٣٩ دولة من طلاب الصف الثامن فى الرياضيات ، و٣٨ من بين ٣٩ دولة من طلاب الصف الثامن فى العلم[٣].

و هذا الانحدار فى مؤشرات التعليم فى مصر بالتوازي مع التوسع فى التعليم الخاص يؤكد أن إحلال التعليم الخاص محل التعليم العام لم يكن فى حقيقته حلاً للتدهور فى مستوى الخدمة التعليمية المتدني، بقدر ما كان مسبباً و معظماً لهذه الأزمة، و أن النهضة التعليمية تتطلب استراتيجيات أكثر قدرة على مواجهة التحديات المستقبلية مع الالتزام بالثوابت الوطنية و فى مقدمتها مجانية التعليم.

(١) د. نسرين محمد عبد الغنى السيد، التعليم فى مصر و توجهات العولمة و الليبرالية: مقاربة من منظور عالمي، مجلة كلية التربية- كلية التربية جامعة المنوفية، العدد الثالث، ٢٠١٧.

(٢) لمزيد من المعلومات عن واقع النظام التعليمي فى مصر يمكن مراجعة:
فتحي السيد يوسف عبدالمجيد، نظام التعليم المصري: تقييم الوضع الحالي و مقترحات التطوير، ٢٠١٥، د.ن.

(٣) تقرير اليونيسيف عن التعليم فى مصر، على الرابط التالي:
https://www.unicef.org/egypt/ar/education

الخاتمة:

و من مجمل دراستنا يتضح لنا أن مصر لم تعرف طوال تاريخها الممتد على مدى آلاف السنوات سوى فكرة مجانية التعليم، و أن التمييز فى تقديم الخدمة التعليمية لم تعرفها مصر إلا بعد الاحتلال الإنجليزي لها، و جاءت ضمن استراتيجية شاملة استهدفها المحتل مع تهميشه للغة العربية و إضعافها، و استهدف المحتل باستراتيجيته إضعاف الهوية الوطنية و الحيلولة دون تشكل حركة نهضة وطنية تقوض مشروعه الاستعماري و تقضي على مصالحه الاستعمارية فى مصر.

كما أن عرضنا لتاريخ التعليم فى مصر خلال العصر الفرعوني بصفة خاصة أوضح الدور الحاسم الذي لعبته مجانية التعليم فى نشر الفكر و الثقافة المصرية، ليس فقط بين كافة طبقات و مناحي الدولة المصرية، بل و تعدتها إلى خارج حدودها، حتى أصبحت مصر بحق هي قبلة العلم الأولى و كانت الرائدة فى كافة العلوم الطبيعية و الإنسانية، و فى مدارسها و جامعاتها تخرج رواد العلوم المختلفة من الإغريق و الرومان و الذين تأسست على مؤلفاتهم علوم حركات النهضة الأوروبية منذ القرن الثامن عشر.

كما اتضح لنا أن نشر العلم بين كافة طبقات الشعب المصري مثل الحصن الواقي ضد الجيوش المستعمرة التي غزتها على مدى تاريخها، و حالت مجانية التعليم دون تمكن المحتل من تغيير هويتها، إلا فى الحالات التي سعى المصريون بأنفسهم لتبني ديانة جديدة، و هي حالات نادرة عند مقارنتها بقوة المستعمرين و بأحوال غيرها من الدول التي تعرضت لذات الأخطار.

أخيراً اتضح لنا أن الصراع ما بين تياري مجانية التعليم من جهة و التمييز الطبقي للخدمة التعليمية من جهة أخرى كان فى حقيقته صراعاً تاريخياً ما بين تيارين: أحدهما استعماري تغريبي يمثله قلة انتهازية منتفعة بمنافع ضيقة، و الثاني تياراً وطنياً جارفاً يدافع عن استقلال مصر و يدرك أن مجانية التعليم هي إحدى ركائز أمنها القومي التي لا يمكن المساس بها.

التوصيات:

فى ضوء دراستنا، يمكننا إجمال أهم التوصيات التي توصل إليها البحث فى الآتي:

التزام الجهات الحكومية باحترام الحق الدستوري فى مجانية التعليم و عدم المساس به.

الالتزام بتطبيق نص المادة ١٩ من الدستور الحالي و تخصيص نسبة ٤٪ من الناتج القومي الإجمالي على الأقل و ذلك بهدف توفير الدعم اللازم لدعم الاستراتيجية التعليمية.

التوسع فى بناء مؤسسات تعليمية حكومية لمختلف المراحل التعليمية لتغطية النقص الواضح فى المنشآت الحكومية و لخفض الكثافة المرتفعة الحالية.

السعي لوضع استراتيجية تعليمية جديدة تهتم بصفة خاصة باكتشاف الموهوبين و المتفوقين فى مختلف المجالات و تسعى لدعمهم و تنمية مهاراتهم.

السعي لتنمية الموارد المالية الخاصة بالمؤسسات التعليمية المختلفة و الاستفادة من القدرات الإنتاجية لدى بعضها.

د. عبدالرحمن محمد سيد

المعهد الكندي العالي للإدارة

CIC: Canadian International College

قائمة المراجع الأجنبية:

A. BOTHWELL GOSSE, THE CIVILIZATION OF THE ANCIENT EGYPTIANS, T. C. & E. C. JACK, Ltd. London, 1916.

David O'Connor, The Narmer Platte: A New Interpretation. Emily Teeter (Editor), Before the Pyramids: The Origins of the Egyptian Civilization, The University of Chicago, 2011.

GEORGE RAWLINSON, M.A., The Story of the Nations: THE STORY OF ANCIENT EGYPT, NEW YORK G. P. PUTNAM'S SONS, 1897.

James Henry Breasted, Ancient Records Of Egypt Historical Documents From The Earliest Times To The Persian Conquest - Volume I: The First To The Seventeenth Dynasties, The University of Chicago Press, 1906.

Pamela R. Willoughby, The Evolution of Modern Humans in Africa: A Comprehensive Guide, AltaMira Press, 2007.

S. S. Laurie, The History of Early Education. The Ancient Egyptians, School Review, Vol. 1, No. 6 (Jun., 1893).

Time Line of Digital Egypt for Universities, retrieved 9 September 2017. http://www.ucl.ac.uk/museums-static/digitalegypt//Welcome.html

Toby Wilkinson, The Rise and Fall of Ancient Egypt, Random House-New York, 2011.

قائمة المراجع العربية:

١. د. أحمد شلبي، التربية الإسلامية: نظمها – فلسفتها – تاريخها. دار النهضة المصرية – القاهرة. ١٩٧٣.

٢. د. أسماء البدوي، التعليم العالي فى مصر: هل تؤدي المجانية إلى تكافؤ الفرص؟ مجلس السكان الدولي، ٢٠١٢.

٣. د. عبدالله عبدالدايم، التربية عبر التاريخ: من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين. دار العلم للملايين – بيروت. الطبعة الخامسة ١٩٨٤.

٤. فتحي السيد يوسف عبدالمجيد، نظام التعليم المصري: تقييم الوضع الحالي و مقترحات التطوير، ٢٠١٥، د.ن.

٥. محمد عمارة، الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي، دار الشروق – القاهرة، ٢٠١١.

٦. د. نسرين محمد عبد الغنى السيد، التعليم فى مصر و توجهات العولمة و الليبرالية: مقاربة من منظور عالمي، مجلة كلية التربية- كلية التربية جامعة المنوفية، العدد الثالث، ٢٠١٧.

٧. هبة الأصبحي، كيف بدأ التعليم و كيف تطور، الرياض، ٢٠١٧.

ملخص البحث:

تبحث هذه الورقة فى أزمة مجانية التعليم فى مصر، فى ظل المؤشرات المتزايدة على سعي بعض المسئولين فى الدولة للتهرب من هذا الالتزام الدستوري. و قام البحث على دراسة على منهج تاريخي تأصيلي لبحث واقع النظام التعليمي فى مصر منذ العصر الفرعوني مروراً بالعصر الإسلامي وصولاً إلى العصر الحديث، و ذلك سعياً لبحث نطاق تطبيق مجانية التعليم فى مختلف العصور. ثم استعرضت الدراسة تطور النصوص الدستورية المؤكدة على مبدأ مجانية التعليم و الصراع الدائر ما بين تياري دعم و مناهضة هذا المبدأ منذ الاحتلال الإنجليزي لمصر و حتى اليوم.

الكلمات الدالة: مجانية التعليم – الحقوق الدستورية – تاريخ التعليم

The Constitutional Right to Free Education in Egypt In Present & Past

Dr. AbdelRahman Mohamed Sayed

Abstract:

This paper examines free education in Egypt, in view of increased indications that some officials are seeking to evade this constitutional obligation. The methodology of the research is based on historical approach to discuss the core of the educational system in Egypt from the Pharaonic era through the Islamic era to the modern age.

The study then reviewed the evolution of the constitutional articles which assured the principle of free education and the ongoing conflict between the two trends, of supporting and opposing this principle since the English occupation of Egypt till today.

Keywords: Free Education – Constitutional Rights – History of Education.